(من كتاب الحجِّ وروح العبادة فيه)

(٩)

الطوافُ ومظاهر العبودية فيه

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطـواف ببيت الله الحرام في الحجِّ ركن من أركانه، جاء الأمر به في كتاب الله بقولـه تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾[1] وسُمي البيت العتيق بهذا الاسم (لأنّه أُعْتِقَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ أَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِ) نقله ابن كثير عن مجاهد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

وقيـل: لأنَّ عنده تُعتـق الرقاب، وتُغفر الذنـوب، وفيه أقوال أخرى.

والطواف عبادةٌ جليلة القدر، رفيعة المنزلة، عظيمةُ الأثر على مـن أدَّاها بحضور قلب، فيُدرك حلاوتها ولذتها، وينتفع بها أعظم انتفاع.

والطواف ليس مجرّد مشي وطواف على بُنية قائمة شرّفها الله، بل هو عبـادةٌ عظيمة جعلها الله لأهل الأرض وسـكّان السـماء،

(١) [سورة الحج: آية ٢٩]

يقـول ابن كثير: (وَفِي كُلِّ سَـمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيـهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ)[1].

ولا يوجد مـكان في الأرض يُطاف عليه إلا الكعبة المُشـرَّفة، أمّا ما يفعله الجهلة من الطواف حول القبور، فهو ضلالٌ مبين.

وعبـادةُ الطواف من أعجب العبـادات التي تعبَّد اللهُ بها تعالى عبـاده؛ فهي عبادة عجيبة في مظهرهـا، وعجيبة في جوهرها، ولذا تقـف عاجزًا حائـرًا أمام هـذا الأمر الإلهـي الذي أمر بـه عباده، فتبحث السِّـرَّ فـلا تجد إلاَّ إجابةً واحدة لا ثـاني لها، وهي تعظيم شعائر الله، والتي هي من تقوى القلوب، وإقامة ذكره.

وحتـى لا تكون عبادة الطـواف جوفاء لا روح فيهـا، فينبغي للطائـف أن يُحضـر قلبَه فيه، لينتفع بـه، ويُؤديه على أكمل وجه، وممّا يعين على ذلك:

اسـتحضار فضل هذه العبادة، واستحضار مكانة البيت، ولقد جـاءت الأحاديث بفضل الطواف، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) [انظر تفسير ابن كثير: سورة الطور]

قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ طَافَ بِهَذَا الْبَيْتِ أُسْبُوعًا فَأَحْصَاهُ -أي: يَحصرُ عددَه فيجعله سبعًا لا زيادةَ ولا نقص- كَانَ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ"(١).

وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما رفع رجلٌ قدمًا ولا وضعَها إلا كُتبت له عشرُ حسناتٍ، وحُطَّ عنه عشرُ سيئاتٍ، ورُفِع له عشرُ درجاتٍ"(٢).

وفي بيت الله الحجر الأسود والركن اليماني، وفي تقبيل الحجر الأسود ومسح الركن اليماني أجور كثيرة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إنَّ مسحَ الحجرِ الأسودِ والركنَ اليمانيَّ، يحُطَّان الخطايا حطًّا"(٣).

تذكَّر وأنت تطوف بالبيت أنَّك تقوم بعبادة جليلة، فالطواف حول الكعبة مثل الصلاة إلاَّ أنه استثني منه الكلام المباح، فعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "الطَّوَافُ حَوْلَ الْبَيْتِ

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد وهذا لفظه، والترمذي.

(٣) رواه الترمذي، والنسائي.

مِثْلُ الصَّـلَاةِ؛ إلاَّ أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ، فَمَنْ تَكَلَّـم فِيهِ؛ فَلاَ يَتَكَلَّمَنَّ إلاَّ بِخَيْرٍ"[1].

وعَـنِ ابـن عَبَّـاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ عَـنِ النبـي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قـال: "الطَّوَافُ صَلاةٌ، فَأَقِلُّوا فيه الْكَلامَ"[2].

وانظر لحال السـلف مع هذه العبادة لترى البون الشاسـع بيننا وبينهم في تعظيم شـعائر الله، ومنها عبادة الطـواف، قال عطاء بن أبـي رباح: (رأيتُ عبـدَ الله بن عمر وعبـد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يطوفان بالبيت جميعًا كأنَّ على رؤوسهما الطير تخشُّعًا).

وقال: (طفتُ وراء ابن عمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فلم أسـمع أحدًا منهما يتكلم في الطواف).

وعـن عبدالكريم بن أبي المخارق قال: قـال لنا طاوس: (إذا كنتُ في الطواف فلا تسألوني عن شيء؛ فإنَّما الطواف صلاة)

قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْعَمَلُ على هذا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَسْـتَحِبُّونَ أَلاَّ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ فِي الطَّـوافِ؛ إلاَّ لِحَاجَةٍ، أو بِذِكْرِ اللَّهِ

(١) رواه الترمذي، وصحّحه الألباني في صحيح الترمذي.

(٢) رواه الطبراني وصحّحه ابن حجر في التلخيص الحبير، والألباني في صحيح الجامع.

تَعَالَى، أو مِنَ الْعِلْمِ)[1].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وينبغي للطائف أن يكون في طوافه خاشعًا متخشِّعًا، حاضرَ القلب، ملازمَ الأدب بظاهره وباطنه، وفي هيئته وحركته ونظره، فإنَّ الطواف صلاةٌ، فيتأدَّب بآدابها، ويستشعر بقلبِه عظمةَ مَنْ يطوف ببيتِه)[2].

فحريٌّ بالطائف أن يكون حال طوافه متأدِّبًا بهذه الآداب، منشغلًا بهذه العبادة عن كل شيء، صارفًا الذهن لها، معتنيًا بإيقاعها أحسن موقع، متأمّلًا ما يقول من دعاء وذكر، فالطواف عبادة كسائر العبادات ينبغي أداؤها على أكمل حال.

وإذا رأيتَ اليوم حال كثير من الطائفين، وكيف انشغلوا بالخلق، والتصوير والغفلة، بل ربما تعدَّى هذا إلى النظر المحرَّم، عرفتَ لماذا ضعف أثر الطواف عليهم، وكيف صار الطواف عبادة لا روح فيها عند الكثير، وصار همُّ الطائف بالبيت متى ينتهي منه.

---

(١) [سنن الترمذي: ٣/ ٢٩٣]

(٢) [المجموع: ٨/ ٥٠]

واستحضر وأنت تطوف مكانةَ الكعبة المشرفة ومنزلتها، فما زالت الكعبةُ المشرَّفة معظَّمةً مكرَّمة في نفوس المؤمنين فِطرةً ودِيانةً، فطرةً بما أودعه الله في القلوب من حب الكعبة وتعظيمها، واشتياق الأرواح إليها، وديانةً بما أمر الله تعالى به المؤمنين من تعظيمها وإجلالها، وبما ارتبط بها من شعائر تعبديَّة بصلاةٍ يتَّجه فيها المسلمون بقلوبهم وأجسادهم نحوها، وبحجٍّ يتكبَّد فيه المسلمون المشاقَّ والمتاعب على حبٍّ؛ ليؤدُّوا المناسك كما أمرهم الله تعالى في صورةٍ تُبهر العالَم أجمع.

وهذا الاستحضار والمعرفة لمكانتها يورث العبد تعظيمها ومحبتها، ويجعل طوافه بها يكون على حال التعظيم والإجلال، قال الله في بيان هذه المكانة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[1].

فجعل الله بيته مثابةً للنّاس لا ينتهي شوقهم إليه، وجعله آمنًا لمن دخله، وأمر بتطهيره لكل طائفٍ ومصلٍ وقاصد له عنايةً به،

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]

واهتمامًا بشأنه، وأضافه لنفسه الشريفة إضافة تشريف، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين، يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبدًا، بل كلَّما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حُبًّا، وإليه اشتياقًا، فلا الوِصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم، فزادت محبته في القلوب، وأقبلت إليه الأفئدة من كل جانب، وقصده المحبون من كلِّ مكان.

طُفّ به مُتَذَكِّرًا أنَّه أوّل بيت وُضع للعبادة في الأرض، وأنّ الله جعله قبلة للمسلمين، يؤمونه كل فرض، وإذا استحضرت تفاوت مواقيت الصلوات في العالم عرفتَ أنّه يُؤمُّ ويُتجّه إليه في كلّ دقيقة من دقائق الليل والنهار، فما أعظم هذا البيت، وما أرفع مكانته!

وقال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لا تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ بِخَيْرٍ مَا عَظَّمُوا هَذِهِ الحُرْمَةَ حَقَّ تَعْظِيمِهَا"**(١).

وكانت مكانة الكعبة عظيمة القدْر، عالية المنزلة عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولذا لمّا رقيَ على الصفا نظر إلى الكعبة، ومع أنَّهُ في

(١) [أخرجه ابن ماجه]

السعي إلا أنّه أراد أن يُعَلِّم النّاس عظمة البيت وارتباط القلوب به، وأنّ استقباله حال الدعاء من آداب الدعاء واستجماع القلب فيه.

قال ابـنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي الأثـر: أنّ آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لمّا حجّ البيت وقضى نسكه، أتته الملائكة، فقالوا لـه: يا آدم، بَرَّ حجُّك، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام)[1].

كـأني أمـامَ الـعـتـيـقِ ذَهُـولْ

وهـذا الـجـلالُ بـسِـرِّي يـجـولْ

ومـا أنْ وقـفـتُ بِـبَـيْـتِـكَ عَـبْـدًا

رأيـتُ الـجـمـالَ إلـيـكَ يـؤولْ

فَـأيُّ بَـهَـاءٍ وَأَيُّ ضِـيَـاءْ

إِذَا شَـعَّ نُـورٌ يَـعُـمُّ الْـفَـضَـاءْ

فَـكَـعْـبَـةُ رَبِّـي جَـلالٌ وَنُـورٌ

وَكَـعْـبَـةُ رَبِّـي ائْـتِـلاقُ الـسَّـمَـاء

(١) [لطائف المعارف:٦٣]

ويبـدأُ الطائفُ طوافه بقوله: (بسـم اللهِ واللهُ أكبرُ، اللهمَّ إيمانًا بِكَ وتَصْدِيقًا بِكِتَابِكَ، ووَفَاءً بِعَهْدِكَ، واتِّبَاعًا لسُنَّةِ نَبِيِّكَ) ويستلم الحجر ويُقبّله إن تيسر له ذلك، فإن شق عليه التقبيل استلمه بيده وقبَّل يده، فإن شـقَّ عليه استلمه بعصا وقبَّلها، فإن شق عليه أشار إليه بيده وكبر.

وينشـغل بالذكـر والدعـاء، يقول شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ويسـتحب لـه في الطـواف أن يذكر الله تعالـى، ويدعوه بما شـرع وإن قـرأ القرآن سِـرًّا فلا بأس، وليس فيـه ذكر محدود عن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بل يدعو فيه بسائر الأدعية الشرعية، وكان النبـي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يختم طوافه بيـن الركنين بقوله:** ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾[1]. **كما كان يختم سائر دعائه بذلك، والطواف بالبيت كالصلاة إلا أن الله أباح فيه الكلام فلا يتكلم فيه إلا بخير)**[2].

(١) [سورة البقرة: آية ٢٠١]

(٢) [منسك شيخ الإسلام]

وينبغي تذكير نفسك وأنت تطوف بالكعبة أنَّك في عبادة لله جليلة، وهذا ما يجعلك حاضر القلب في طوافك، مستجمع النفس على القيام به على أحسن حال، ولْيمتلئ القلبُ شكرًا لله أَنْ خَصَّكَ بهذه العبادة، واصطفاك لهذا النسك، وجعلك تطوف في أعظم العبادات، وتؤدي ركنًا عظيمًا من أركان الإسلام، وفي زمان فاضل، وأحسن الظنَّ بربك بأنّه ما وفقك ويسّر لك المجيء إلا ليُكرمك ويغفر لك، ويُعطيك سؤلك، ويُجيب دعوتك.

استحضر وأنت تطوف كم ذرفت حول بيت الله من دمعات، وكم أُجيبت من دعوات، وكم أكرم اللهُ عنده مِنْ عبد، وكم غُفرت هنا مِنْ ذنوب وخطيئات، وكم خرج طائفون بعد طوافهم كيوم ولدتهم أمّهاتُهم، ففي فضل طواف الوداع، يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: **(وأمَّا طَوافُكَ بالبيتِ بعدَ ذلكَ؛ فإنَّكَ تَطوفُ ولا ذَنْبَ لكَ، يأتي مَلَكٌ حتَّى يضَعَ يدَيْهِ بينَ كَتِفَيْكَ، فيقولُ: اعمَلْ فيما تَستَقبِلُ؛ فقد غُفِرَ لكَ ما مَضى)**[1].

(١) رواه الطبراني، والبزّار، واللفظ له، وهو حديثٌ حسن.

فإذا ما انتهى الطائفُ بالبيت من طوافه يكون حاله بين القبول والرجاء - رجاء القبول وخوف الرد- مع إحسان الظنّ بالله، ثمّ يصلي خلف مقام إبراهيم إن تيسر، وإلا صلى في أي مكان، ويقرأ قبل صلاة الركعتين قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾[1].

امتثالًا لأمر الله الآمر بهذا، ومتأسيًا بنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي فعل ذلك، واستشعار ذلك ممّا يزيد الإيمان، ووجدان لذة العبادة فيها، ويتذكر هنا مقام إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الذي وقف على هذا الحجر ليرفع بناء البيت، ومقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وقف في هذا المكان وصلى.

إنّ إحياء هذه العبوديات في النفس من أعظم الأسباب لإكمال هذه العبادة، وأدائها على أحسن حال، وإيقاعها على أحسن موقع.

وإذا رأيتَ هؤلاء الخلق الذي يُعدُون بالملايين، وهذه الأعداد الهائلة التي تطوف بالبيت الحرام، ولا ينقطع الطواف

(١) [سورة البقرة: آية ١٢٥]

عـن الكعبـة في أزمنتنا لحظة واحدة، ظهرت لـك في بيت الله عِبر وآيات، منها: ما جعله الله في قلب كلِّ مؤمن ومؤمنة -كما تقدّم- من حبٍّ للكعبة، وأنسٍ عند النظر إليها، والجلوس إلى جوارها، أو الطـواف بهـا؛ فكم ترتجف القلـوب فرحًا إذا رأتهـا، وكم مِنْ عبَرَات ودمعات تُسـكب إذا شـاهدتها، بل إنّ كثيـرًا من النفوس المؤمنة تتمنى البقاء بجوارهـا وعدم مغادرتها أبدًا، كلّ ذلك حبًّا لهذه البُنية العظيمة، فيا لله كم جعل الله في بيته من آيات!

ومـا إن رأيـتُ سِـتـارَ العتيقِ
بقلبـي هـواهُ أسـيرٌ حبيـسْ
أوجِّـهُ وجـهـي لـه بِـخُـشـوعٍ
كوجْـهِ العَـروسِ لـوَجْـهِ العريـس
أُسـائـلُ نفسي وقـومـي هُـجُـوعْ
أحقـًا أتَيـتُ لأغلـى الرُّبـوعْ؟
أنـام وأصـحـو وقـلـبي يُلبِّي
وتنسـابُ مـنْ مُقْلَتَـيَّ الدمـوعْ

وهذا الشـوق إلى بيت الله لا ينقطع عنهم مهما عادوا إليه، بل تشـتاق له النفس بمجـرد مغادرته ولو كان العهـد قريبًا، وهذا ما خصّ اللهُ به بيتَه دون سائر البيوت.

ومـن مظاهر آيات الله في الطـواف: إذعان هذه الأعداد الهائلة للطـواف حول الكعبة، فمع أنّها في ظاهرها بُنية صامتة لكنّها عند أهل الإيمان بيتٌ عظيم، له منزلته الرفيعة في شرع الله، فيطوف به أهل الإيمان اسـتجابة لأمر ربهم، ورغبة في الأجر والثواب الذي جاء فيه.

وهنا تنبيه مهم ينبغي الإشـارة إليه، وهو أنَّ طواف المسلمين حول الكعبة، وبين الصفا والمروة وسـائر مناسك الحجّ إنّما هو اسـتجابة لأمر الله الذي أمرهم بذلـك، فالطواف في حقيقته عبادة لله، وليـس لذات الكعبة، ولئـن كان للكعبة المكانة الشـرعية في الإسـلام، والوجدانيـة في نفـوس المسـلمين، إلا أنّهـم يطوفون تعبُّـدًا لله، ولذا يقـرأ المؤمنون قول الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾[1]؛ وهـم حال طوافهم بهـذا البيت لا يدعون البيت،

(١) [سورة قريش: آية ٣]

وإنمـا يدعون الله تعالـى، فالطائف يُكثر من ذكـر الله، ويكثر من دعائه، ويكثر من قراءة القرآن، ويخضع لربه ويخشـع، ويتواضع بين يديه.

فكن معظِّمًا ربك، مسـتجمع القلب عند الطواف، كثير الذكر والدعاء لتذوق حلاوة الطواف، وتنال ثمراته.

❊❊❊